ليلة رقص وسماع اميريّة

للفقراء بدمشق

سنة ٦٥٩/١٣٦١

يُراد بالفقراء هنا كل من تظاهر بالزهد واحتال بالفقر والنسك من اصحاب الطرق والمتصوفة ، في ما عدا المساكين حقاً والمعدمين . وربما دخل بينهم من ليس منهم ، وانضوى اليهم بعض الكبراء والعلماء والكتاب ، احتماء بهم من صولة السلطان ، او تدللاً على ملوك الزمان ، كما فعل عماد الدين الاصبهاني الكاتب المشهور بانشائه الحوشي وتقعره في السجع ، حين غضب من اجل ختم من اختام الذهب التي كانت تكون على كتب الافرنج ورد منها كتاب على الملك الناصر صلاح الدين الايوبي في غياب عماد الدين وفاته تحصيله ، فجرد وابى ان يجيب على الكتاب . فأخرجه صلاح الدين من حضرته ، وتعصّب له القاضي الفاضل ، واشار عليه ان يقعد احتياطاً في خانقاه الفقراء وما زال فيها متزوياً متظاهراً بالجرد ، حتى اتى السلطان بشفاعة القاضي الفاضل وترضاه بنفسه[1] . ولا يخفى ما في هذه الغريبة من الملحة والفكاهة .

وقد تحامى المؤرخون وصف شيء من حياة هؤلاء الفقراء في عاداتهم واخلاقهم ورسومهم وسُننهم وملابسهم وازيائهم ومشاربهم ومآكلهم ، فلا ندري منها سوى تلويحات ولمحات لا تكفي لتصوير ما كانوا عليه من المعيشة والسلوك بغاية الوضوح والتحقيق . واشتهر المتصوفة منهم خصوصاً بكثرة الجشع في الاكل والشرب ، والولع بالرقص ، والتهافت على السماع والغناء ، حتى نعتهم ارباب اللغة بالزفانة الحفانة . قال الزبيدي في التاج : اي يرقصون ويحفنون الطعام بحفناتهم[2] . ووصف بعض الشعراء اكلهم ورقصهم باكل البهائم ورقص الدباب ، وانكر عليهم ابو العلاء المعري هذا الشذوذ فقال :

(١ جزء من المقفى للمقريزي فيه بعض تراجم المحسنين ، في خزانة جامعة ليدن ، غير مرقوم Amb 1366 C.

٢) تاج العروس ٩ : ٢٢٧

ارى جيل التصوّف شرّ جيل فقل لهمُ وأهونْ بالحلولِ
أقال الله حين عبدتموه : كلوا اكل البهائم وارقصوا لي (١)

وقلده في هذا الهجاء شداد بن ابرهيم الملقب بالطاهر الجزري فقال بافظه ومعناه :

ايا جيلِ التصوّف شرّ جيلِ لقد جئتم بأمر مستحيلِ
أفي القرآن قال لكم الهي كلوا مثل البهائم وارقصوا لي (٢)

وللسيد ابي محمد عبدالله احمد بن ابرهيم الزاوي الكاتب في وصفهم والتحذير منهم :

لا تثق بالسكوت من كل صوفي واجتنب مكرهم وكن في صدوفِ
قصّروا قمصهم وحفّروا لحاهم ثمّ احدودبوا بمثي قطوفِ
افسدوا العالم اكلاً ورقصاً وادّعوا انه لربّ رؤوفِ
اترى ربهم يقول ارقصوا لي واتركوا ما فرضتُ من معروفِ (٣)

وكان بالبوازيج ، وهي بليدة بالقرب من السلامية ، زاوية لجماعة من الفقراء اسم شيخهم مكّي . فعمل فيهم ظهير الدين قاضي السلامية المتوفى سنة ٦١٠ = ١٢١٣ هذه الابيات :

ألا قل لمكّيّ قول النصوح فحقّ النصيحة ان تُستَمعْ
مشى سمع الناس في دينهم بان الغنا سنّة تتّبعْ
وان يأكل المرء اكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقعْ
ولو كان طاوي الحشا جائعاً لما دار من طرب واستمعْ
وقالوا سكرنا بحب الاله وما اسكر القوم الا النبيعْ
كذاك الحمير اذا اخصبت يُنَفّزها (٤) ريّها والشبعْ (٥)

وربما استحلّ بعضهم كل المحرّمات والكبائر ، وتظاهروا غير مبالين بالفسق والفجور ، واقترفوا مخزية ليلة الماشوش كما تقدم لنا وصفها في الكلام على متصوفة شيراز (٦) . واشتهر منهم بالتهتك والاستباحة الشيخ خضر الكردي ،

١) ارشاد الاريب لياقوت ١ : ١٧٥
٢) ارشاد الاريب لياقوت ٦ : ٢٦١
٣) مجمع الآداب للغوطي في دار الكتب الظاهرية بدمشق ٢٦٧ تاريخ
٤) اي يرقصها
٥) وفيات الاعيان ، طبعة دسلان ٩ ١
٦) المشرق ٢ : ١٩٦٨ ص ٢١٧

شيخ الملك الظاهر بيبرس[1]، والشيخ ابي الحسن الحريري[2] والشياع ابي بكر المجذوب الحلبي[3] ، واضرابهم من المستهزئين بالاديان الذين اسهب المؤرخون في تعداد مساوئهم او طلب الاعذار لهم فيها ، واحتقروا من اجلهم تدوين فضائل المبرزين والمهرة في الفنون والصناعات .

وعُرف الدمشقيون خصوصاً بالاحسان الى هؤلاء الفقراء او المتفقرين وكثرة التصدق عليهم ، وبناء الدور والمساكن لاضيافتهم ،ولذلك تعددت في مدينتهم قديماً الخوانق والرُبط والزوايا والملاجئ ، وعاش بعضهم فيها عيشة الاغنياء ، وساعدهم الامراء والاسخياء على الاخذ بنصيب من ملاذّ الحياة ، فكانوا يُغدقون عليهم الارزاق والهبات ، ويقيمون لهم الدعوات والولائم ، ويُحيون لاجلهم السهرات والليالي الراقصة والساهرات ، ويفتقدونهم دائماً بالاكسية والحُلع والمآكل والمشارب و قد وصف ابن جُبير عيش الصوفية بدمشق حين اجتيازه بها في القرن السادس للهجرة فقال وقوله جدير بالتدبر والاعتبار :

« هم الملوك بهذه البلاد لانهم قد كفاهم الله مُؤَن الدنيا وفضولها وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش واسكنهم في قصور تذكّرهم قصور الجنة »[4]

وقد فاتنا وصف بعض هذه القصور الفقيرة ، اذا جاز هذا النعت ، فلا ندري الى اي رباط او زاوية او مدرسة يومئ ابن جبير ، وهو لا يبعث في النفس اشد الحسرات لخفاء مثل هذه الفوائد النادرة التي تتجلى فيها باصدق وجه واوضح بيان معيشة طبقة من سكان دمشق هي اغضهم خبراً وتاريخاً واوفرهم آبدة وشاردة .

وبينما كنا في شهر ايار (مايو) سنة ١٩٣٤ ، نطالع بعض مخطوطات خزانة اكسفرد ، اسعدنا التوفيق بالوقوف على فصل مُمتع من ذيل قطب الدين

---

١) طالع من بعض تراجمه ما حكاه عنه صلاح الدين الكتبي في فوات الوفيات ١ : ١٩٢ – ١٩٣

٢) طالع من بعض تراجمه ما حكاه عنه صلاح الدين الكتبي في فوات الوفيات ٢ : ٥٢ – ٥٧

٣) طالع ترجمة احمد الناري في خلاصة الاثر للمحبي ١ : ٢٥٩ – ٢٦٠

٤) رحلته ، ص ٢٨٤

اليونيني[1] على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي وصف فيه عَرَضاً دقيق وصف احدى هذه الليالي الراقصة التي دُعي اليها خصوصاً واختلط فيها الامراء بالمشايخ والفقراء ، وتمثلت فيها صورة طرف من ترف اهل دمشق في القرن السابع للهجرة اصدق تمثيل ، ولا نعلم صفحة اخرى أجيد فيها هذه الاجادة في وصف نعيم اهل دمشق وملاذ الفقراء في الزمن الغابر . ولا يخفى ما في مطالعة هذا الفصل من الطرفة والفكاهة والفائدة التاريخية . قال في وفيات سنة ٦٦٢ (١٢٦٣—١٢٦٤) في ترجمة لاجين بن عبدالله الامير حسام الدين الجوكنداري العزيزي :

« كان من اكبر الامراء واعظمهم مكانة واعلاهم قدراً . . . وكان له في الفقراء والصالحين عقيدة حسنة ويكثر من الاحسان اليهم والبرّ بهم وافتقادهم بالنفقة والكسوة وغير ذلك وكان يعمل لهم السماعات ويحضر فيها من المآكل والمشارب والاراييح الطيبة والشموع ما يبهر العقل ويتجاوز الحد فكان يُقدّر ما يغرمه على السماع الواحد بقريب من مائة آلاف درهم وكنت اسمع احتفاله في امر السماع وعلو همته فاحمل الامر على المجازفة في القول من الحاكي فاتفق انه طلبني ليلةً لحضور ذلك فحضرت عنده فكان الامر على ما بلغني واكثر فاني لما دخلت داره التي بالمُقَيبة رأيت من الشموع الكافوري الكبار في الانوار[2] الفضة والمطعمة ما يقصر عنه الوصف ثم مدّ بعد صلاة المغرب ساطاً عظيماً يشتمل على قريب مائة زبدية عادلية كبار في كل زبدية منها خروف صحيح رضيع وقريب ثلاثة زبدية دون تلك في كل زبدية ثلاثة طيور دجاج وغير ذلك من انواع الاطعمة فلما فرغ الناس من الاكل صلّوا عشاء الآخرة وشرع المغاني في الغناء ورقص هو بنفسه بين الفقراء كاحدهم وكان يسلك معهم الادب والتواضع لهم ما لا مزيد عليه .

فلما فرغ من النوبة الاولى مدّ ساطاً عظيماً يشتمل على عدة اطباق وصحون خيرانية حلوه وسكب وقطائف رطبة وقلوة وشبك وغير ذلك مما جرت به العادة بالسكر المصري المكرّر والفستق والمسك فاكل الناس من ذلك ما امكنهم وحملوا بحيث شيل معظم ذلك في خيرق الحاضرين فلما فرغوا من ذلك شرع المغاني في الغناء نوبة ثانية فرقص هو وغلمانه ومن حضر من الفقراء والمشايخ وغيرهم . فلما فرغ المغاني من النوبة الثانية مدّ ساطاً عظيماً من الفواكه النادرة من السفرجل والتفاح الفتحي والكمثري الرحبي والرمان اللفّان والخلو والعنب النادر والبطيخ الاخضر وكانت هذه الفاكهة التي حضرت معدومة في مثل ذلك الوقت يتعذر وجودها على غيره لان ذلك كان في اواخر فصل الشتاء وانما كان يُذخر له ذلك

---

١) خزانة أكسفرد رقم 113 — 112 *Poc. or.* 132 f.

٢) الانوار جمع نَوْر بمعنى الشمعدان .

بالقصد فان قرية كفربطنا وزبدين وعدة قرى من الغوطة كانت جارية في اقطاعه وجميعها الفواكه النادرة فاكل الناس من ذلك ما امكنهم .

ثم غنّى المغاني النوبة الثالثة ورقص الجميع فلما فرغوا مدّ لهم سماطاً من المكسّرات على اختلاف انواعها من القصب(١ العراقي والفستق والبندق والزبيب الجوزاني(٢ والفستق المملّح والمُشكّكان(٣ والكعك المحشو والبقسماط المعمول بالسكر واللوز وغير ذلك فاكل الناس من ذلك وحملوا . وجميع ما يُعدّ على كثرته لا يُرفع منه بقية البتة بل يؤكل منه ما يمكن ويتفارق الحاضرون ما بقي ويذهب . وجميع ما شُرب في تلك الليلة من اولها الى آخرها مصنوع بالثلج والسكر وماء الخلاف(٤ والورد والمسك والسفاة يلاثون الكيزان من ذلك على الدوام والماخر تُسمل بالند والعنبر والعود الهندي المذكّى من اول الليل الى آخره .

ولما كان وقت السحر اخلى حمام ابن السرمك(٥ المجاورة لداره ودخل اليها ومعه معظم الجمع ولم ادخل انا معهم فحكى لي الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد اليونيني رحمه الله وكان حاضراً قال : بعد خروجك دخلنا الحمام فجعل الامير يخدم الفقراء بنفسه ويعانقهم فلما خرجوا كان منهم جماعة خلعوا قصاعهم ودلوقهم(٦ فاحضر لهم قُمصاً حُمُدياً وثياباً جدداً في غاية الحسن والمناسبة لما يليق بهم ثم خرج واستدعاهم الى داره وسقاهم من الاشربة ما يناسب الحمام ويلائمه وعدّ لهم سماطاً عظيماً من الطُّفاج واحضرهم حاوي سُخنة فاكلوا وانصرفوا واما هو فانه خلع على المغاني من ملبوسه عدة بغالطيق(٧ تساوي جملة كبيرة وكذلك غلمانه خلعوا .

وكان هذا السماع في آخر سنة تسع وخمسين (وستمائة = ١٣٦١ م) والفرارة القمح بدمشق ثمنها ما يقارب ثمانية دوهم والرطل اللحم بالدمشقي يبلغ سبعة دراهم والدجاجة ببلغ ثلاثة دراهم وجميع الاشياء غالية جداً :

---

١) كذا وردت هذه اللفظة مرسومة في الاصل بالصاد . ولعلها سبق قلم لان القصب العراقي اذا كان موجوداً لم يكن يعد من المكسّرات . والارجح ان الصحة قَسْب بالسين الساكنة وهو نوع من تمر العراق يابس يتفتّت في الفم .

٢) الجوزاني نسبة غامية الى الجوزة ضرب من العنب كبير الحب صلب زكي الحلاوة كان يجفّف ويصنع منه زبيب غاية في الجودة ذكر ياقوت انه كان معروفاً في القرن (معجم البلدان ٣ : ٨٧٣) وفي « تذكرة الصفدي » و « محاسن الشام » للبدري ذكر الجوزاني مع الدربلي والخاراني بين اصناف العنب بدمشق ولا يُعرف فيها اليوم .

٣) اقراص من الدقيق والسكر .

٤) الخلاف نوع من الصفصاف المصري كان معروفاً بدمشق يستقطر منه ماء تطيب به الاشربة كماء الورد وزهر النارنج .

٥) كان بالعُقيبة بدمشق ١٣ حماماً منها اثنان لابن السرمك (عدة الحمامات في تعداد الحمامات لجامعه يوسف بن عبد الهادي من مخطوطات الخزانة الظاهرية بدمشق) .

٦) الدلوق جمع دلق نوع من الثياب متسع الاكمام طويلها كانت تلبسه اولاً العلماء والقضاة والخطباء ثم شاع بين الفقراء .

٧) البغالطيق جمع بَغْلُطاق لفظة فارسية لضرب من القباء قصير الكمّين او لا كمّ له .

وكانت وفاته رحمه الله في رابع عشر محرم ودفن بسفح قاسيون ».

ولا نظن ان بعد هذه السعة وهذا الترف والتنعم والتهتم واللهو محلًا للمزيد . وكذا كان بعض الفقراء والصاليك بدمشق يعيشون احيانًا معيشة الامراء والمماليك ، ولذلك كان الاقبال عظيماً على حرفة الفقر والاستعطاء .

ويظهر ان مثل هذه الليالي الراقصة والباهات لم تكن خاصة بدمشق بل كان يجري مثلها او قريب منها في مصر ويُستدعى الفقراء لحضورها ، وهو ما نقله علاء الدين علي بن خطيب الناصرية بروايته عن الشهاب محمود في ترجمة الامير جمال الدين العزيزي ايدغدي بن عبدالله من مماليك الملك العزيز محمد بن غازي صاحب حلب قال :

« قال المولى قطب الدين نفع الله به : حكى لي بعض الناصرية قال : لما دخلنا الديار المصرية اتفق ان بعض اكابر الامراء عمل سماعًا وحضر بنفسه الى الامير جمال الدين ودعاه فوعده بالمضيّ اليه والحضور عنده فلما كان عشاء الآخرة مضى ونحن معه جماعة من مماليكه وخواصّه الى دار ذلك الامير فلما دخل وجد جماعة من الامراء جلوساً في ايوان الدار وجماعة من الفقراء في وسط الدار فوقف ولم يدخل وقال لصاحب الدار : أخطأتم في ما فعلتم كان ينبغي ان يقعد الفقراء فوق وانتم في ارض الدار ولم يجلس حتى تحول الفقراء الى مكان الامراء والامراء الى مكان الفقراء وقعد هو ونحن بين الامراء فلما غنّى المغني قام احدهم والدف بيده يستعطي وهذه كانت عادة المغاني في الديار المصرية فلما رآه الامير جمال الدين انتهره وقال : والك(١ انت في الخلق(٢ ؟ واشار الى خزندار فوضع في الدف كيساً فيه الف درهم فلما رقص الجمع دار فيهم ورمى على المغني بغلطاقه وهو ابيض قطن بطبلكي ما يساوي عشرين درهمًا فرمى سائر مماليكه بغالطيقهم موافقة له وقيمتها فوق الثلاثة آلاف درهم ثم دار في النوبة الثانية ورمى على المغني منديله وهو ابيض كان يساوي ثلاثة دراهم فرمى سائر اصحابه مناديلهم وفيها ما هو بالذهب وغيره ولعل قيمتها فوق الالف وخمسمائة درهم فحُسب ان المغاني حصل لهم منه ومن غلمانه نحو الستة آلاف درهم»(٣

---

١) « والك » كلمة انتهار وتهديد لا تزال يتلفظ بها اليوم والاصل «اولى لك » ومن كان مولعًا بها الوزير علي بن عيسى (تاريخ الوزراء للصابي ٢٢٣) . ولاحد الشعراء :

سألتهُ قبلة في روض وجنتهِ يحيا بها القلب مني قال «ميرٌ» . والك»

(كتاب بيان الاسى لمحمد بن الحكم الشافعي ، خزانة اكسفرد Marsh. 490, f° 25)

٢) الاول من الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب نسخة ناقصة من مخطوطات المكتبة الاحمدية بحلب رقم ١٣١٤ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

ومثل هذا الرمي على المغنين هو ما يسمّى النقط[1] او النقوط ، كما تقول العامة وهو قديم . وانما كانت خلعة الامير جمال الدين ايدغدي من القطن دون خلع مماليكه واصحابه لانه كان كما وصفه ابن خطيب الناصرية « مقتصداً في لبسه لا يتعدى ثياب القطن في ملبسه من القماش الهندي والبعلبكي وغيره مما يُباح ولا يُكره لبسه »

وكانت وفاته في القدس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ فليس اذن بين الليلتين والسماعين زمن بعيد ، ولكن البعد والفرق بين نعيم الفقراء بدمشق ونعيمهم بمصر « وما قصبات السبق الا لمبدٍ » !

١) جاء في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني في حكاية غناء وطرب وعطاء «طَرِب وفرض لي » قال : وفرض لي اي نقّطني يعني ما يجب الناس للمغنين ويسمونه النقط (١٧ : ٩٨) وقد ورد هذا اللفظ كثيراً في اشعار المتأخرين قال ابن المرحّل المعروف بابن الوكيل المصري :

اناه النسيم الرطب رقّص دوحَه فنقّط وجه الماء بالذهب المصري

(فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢١٨)